التلبية

معانٍ وهدايات

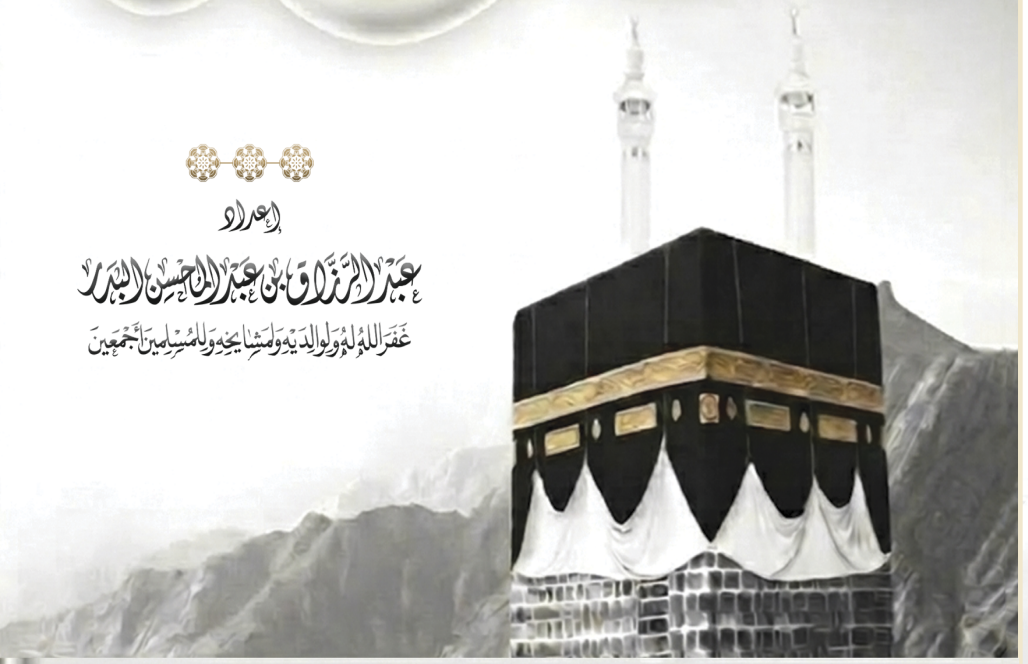

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين أجمعين

اعتنى به

خالد بن عبد الله الكندري

التَّلْبِيَة

مَعَانٍ وهِدَايَاتٌ

مَعَانٍ وهِدَايَاتٌ

تأليف

عبد الرَّزاق بن عبد المحسن البدر

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

جميع الحقوق محفوظة

تمَّ تنسيق هذه المادة ومُراجعتها في

هاتف: ٥٠٣٥٠٠٧٧ ٩٦٥+ البريد الإلكتروني: maktab.etqan@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ، نَحْمَدُهُ، ونَستعينُهُ، ونَستغفِرُهُ، ونَعوذُ بِاللهِ مِنْ شُرورِ أَنفُسِنا وسَيِّئاتِ أَعمَالِنا، مَنْ يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ لهُ، وأَشهَدُ أَن لا إِلـه إِلَّا اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأَشهَدُ أَنَّ مُحمَّدًا عَبْدُهُ ورسولُهُ ﷺ.

أما بعد:

فإنَّ كلماتِ التَّلبيةِ: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ**» كلماتٌ جليلةٌ، لها شأنٌ عظيمٌ في الحجِّ، وهي شِعارُ الحَجِّ وأَفْضلُه.

فقد سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ: أيُّ الحَجِّ أَفضَلُ؟ فقال ﷺ: «**العَجُّ وَالثَّجُّ**»[1].

والعَجُّ: رفع الصَّوت بالتَّلبية.

---

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٨٢٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٠٠).

وعن مجاهد رحمه الله قال: «شِعَارُ الحَجِّ التَّلبيةُ» (١).

فالتَّلبيةُ هي زينةُ الحجِّ، ومِنْ أَعْظَمِ شَعائِرِه، ففي «المسند» عن زَيدِ بنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: «**جاءَنِي جِبْرِيلُ، فقالَ: يا مُحَمَّدُ، مُرْ أَصْحابَكَ، فَلْيَرْفَعُوا أَصْواتَهُمْ بِالتَّلْبِيَةِ، فإِنَّها مِنْ شَعائِرِ الحَجِّ**» (٢).

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «زِينةُ الحَجِّ التَّلبيةُ» (٣).

وهي هديُ المُرسلين، ففي «صحيح مسلم» عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِوادِي الأَزرَقِ فقال: «**أَيُّ وادٍ هذا؟!**»، فَقالُوا: هذا وادِي الأَزرَقِ، قال: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى مُوسى عليه السلام هابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ ولهُ جُؤَارٌ إِلى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ**»، ثُمَّ أَتى على ثَنِيَّةِ هَرْشَى، فقال: «**أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟!**»، قالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشى، قال: «**كأَنِّي أَنظُرُ إِلى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام على ناقَةٍ حَمْراءَ جَعْدَةٍ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خِطامُ ناقَتِهِ خُلْبَةٌ؛ وهُوَ يُلَبِّي**»(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥٠٦١).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٦٧٨)، والترمذي في «جامعه» (٨٩٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٣٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣٣٨٤).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٦٦).

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يُكْثِرُ منها في حَجِّه، ويرفَعُ بها صوتَه، بل لم يَزَل ﷺ يُلبِّي حتَّىٰ رَمَىٰ الجَمْرةَ[1]، وكان أصحابُه يرفعونَ أَصواتَهم بالتَّلبيةِ ولا يبلُغُونَ الرَّوْحاءَ حتَّىٰ تُبَحَّ أصواتُهم مِن شِدَّة تلبيتِهم[2].

ومِنْ فَضْلِ التَّلبيةِ، وعظيم قدرِها أنَّ كُلَّ ما حولَ المُلبِّي مِنْ حَجَرٍ أو شَجَرٍ أو مَدَرٍ يُلبِّي معه.

فعن سَهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «**ما مِنْ مسلمٍ يُلَبِّي إلَّا لَبَّىٰ مَن عَن يَمينِهِ أو عن شِمالِهِ، مِن حَجَرٍ أو شجَرٍ أو مَدَرٍ؛ حتَّىٰ تَنْقَطِعَ الأرضُ مِن هاهُنا وهاهُنا**»[3].

فالتَّلبيةُ شأنُها عظيمٌ، وأثرُها عَمِيقٌ لمَن أَكرَمَهُ الله ﷻ بالإحسان فيها؛ عِلْمًا بمعناها، وعملًا بمُقتضاها، وتحقيقًا لمَقصودِها.

وأمَّا أَن يأتيَ المُلَبِّي بألفاظِها مجرَّدةً دون أن يَعِيَ معناها، ويعرفَ مَدلُولَها ومَقْصُودَها، ويُحَقِّقَ غايتَها

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٦٨٥)، ومسلم في «صحيحه» (١٢٨٢).

(٢) أخرجه ابنُ أبي شَيبة في «مصنفه» (١٥٠٥١)، وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٤٠٨): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٨٢٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي».

ومُقتضاها؛ فإنَّها تكونُ ضعيفةَ الأَثرِ عليه، بل ربَّما كانت عديمةَ الأَثرِ؛ فلا ينتفِعُ بها ولا يَستَفِيدُ.

وهكذا الشَّأنُ في جَميعِ الأَذكارِ المَشْرُوعةِ؛ لا بُدَّ أن يقولَها المُسْلِمُ قَولًا عن فَهْمٍ، وعن إيمانٍ واعتقادٍ بما دلَّتْ عليه مِنْ تَوْحِيدٍ أو تَعظيمٍ أو تَنزيهٍ أو ثَناءٍ على الله ﷻ؛ فجميعُ الأذكارِ المَشْروعةِ تَشْتَمِلُ على معانٍ عظيمةٍ، ودلالاتٍ جليلة.

فالواجِبُ على كُلِّ مَن أَهَلَّ بهذه الكلمات أن يعرفَ ما دلَّت عليه مِن معنًى، وأَن يَسْتحضِرَ ما تضمَّنتْهُ مِن دلالةٍ، وأَن يُحَقِّق ذلك اعتِقاداً وعَمَلًا؛ ليكونَ صادِقًا في إِهْلالِه، وليوافقَ كلامُه حقيقةَ حالِه؛ بحيثُ يكونُ مُستَمْسِكًا بالتَّوحيدِ، مُحافِظًا عليه، مُراعِيًا لحقوقِه، مُجانِبًا لِمَا يُضادُّه ويُناقِضُهُ مِنَ الشِّرك بالله ﷻ؛ فيَحذَرُ تمامَ الحَذَرِ منَ الوُقوعِ فيه، أو في شَيءٍ مِن أَسبابِه ووَسائِله وطُرُقِه؛ إِذْ هو أعظمُ ذَنْبٍ، وأَكبرُ جُرْمٍ يرتَكِبُهُ المرءُ في حقِّ الله ﷻ.

أجارنا الله جميعًا مِنَ الشِّرك، وحمانا مِن وسائِله وذَرائِعه، ورزَقَنا التَّوحيدَ والإِخلاصَ، إِنَّه سبحانه سَميعُ الدُّعاءِ، وهو أَهلُ الرَّجاءِ، وهو حَسْبُنا ونِعمَ الوَكِيل.

معنى التَّلبية

التَّلبيةُ في اللُّغةِ: مصدرٌ للفِعلِ «لـبَّىٰ» علىٰ وزنِ: «زكَّىٰ»، يُقال: «لَبَّيْتُ بالحجِّ تَلْبِيَةً»، وربَّما قالوا: «لبَّأْتُ» بالهمز، وأصله غير الهمز، ولَبَّيْتُ الرَّجُلَ، إذا قلت له: لبَّيك [1].

وأمَّا أصلُ معناها فقد قال ابنُ القَيِّم رحمه الله: «**في معنىٰ التَّلبيةِ ثمانيةُ أقوالٍ:**

۞ **أحدُها**: إجابةً لك بعد إجابةٍ، ولهذا المعنىٰ كُرِّرَتِ التَّلبيةُ؛ إيذانًا بتكريرِ الإجابةِ.

۞ **الثَّاني**: أنَّه انقيادٌ لك بعد انقيادٍ، من قولهم: «لَبَّبْتُ الرَّجلَ» إذا قَبضْتُ علىٰ تلابيبه، ومنه: «فلَبَّبْتُه بردائِه»، **والمعنىٰ**: انقَدْتُ لكَ، وسَعَتْ نفسي لكَ خاضِعةً ذَليلةً، كما يُفعَل بمَنْ لُبِّبَ بردائِه، وقُبِضَ علىٰ تَلابيبه.

۞ **الثَّالث**: أنَّه مِن: «لَبَّ بالمكان» إذا أقام به ولَزِمَه، **والمعنىٰ**: أنا مُقِيمٌ علىٰ طاعتِك، مُلازِمٌ لها، اختارَه صاحِبُ «الصِّحاح» [2].

---

(١) الصِّحاح للجوهري (٦/ ٢٤٧٨).

(٢) الصِّحاح للجوهري (١/ ٢١٦).

۞ **الرَّابع**: أنَّه مِن قَولِهم: «داري تلُبُّ دارَك» أي: تواجِهُها وتقابِلُها، أي: أنا مُواجِهُك بما تُحِبُّ، مُتوَجِّهٌ إليك، حكاه في «الصِّحاح» عنِ الخليل.

۞ **الخامسُ**: معناه: حبًّا لك بعد حُبٍّ؛ من قولهم: «امرأةٌ لَبَّةٌ» إذا كانت مُحِبَّةً لولدها.

۞ **السَّادسُ**: أنَّه مأخوذٌ مِنْ لُبِّ الشَّيءِ، وهو خالِصُه، ومنه: «لُبُّ الطَّعام»، ولُبُّ الرَّجلِ: عقلُه وقلبُه، ومعناه: أَخْلَصْتُ لُبِّي وقَلبِي لك، وجعلتُ لك لُبِّي وخَالِصتي.

۞ **السَّابعُ**: أنَّه مِن قولهم: «فلانٌ رَخِيُّ اللَّبَبِ»، و«في لَبَبٍ رَخِيٍّ»، أي: في حالٍ واسعةٍ، مُنشَرِح الصَّدر، ومعناه: أنِّي مُنشَرِحُ الصَّدرِ، مُتَّسِعُ القلبِ لقَبولِ دعوتك وإِجابَتِها، مُتوجِّهٌ إليك بلَبَبٍ رَخِيٍّ توجُّه المُحِبِّ إلى مَحبوبِه، لا بِكُرْهٍ ولا تَكلُّفٍ.

۞ **الثَّامن**: أنَّه من الإلبابِ؛ وهو: الاقترابُ، أي: اقترابًا إليك بعد اقترابٍ كما يَتقَرَّبُ المُحِبُّ مِن مَحبوبِه»[1].

***

(١) تهذيب السنن لابن القيم (١/ ٣٣٣-٣٣٤).

والحاصِـل: أنَّ حقيقـةَ التَّلبيـةِ اسـتجابةٌ لله ﷻ، وإذعـانٌ لأَمرِه، وامتثالٌ لشرعِه، وخُضُـوعٌ لحُكْمِـه، ودُخُـولٌ في طاعتِه، وهي دُخُـولٌ مِـنَ الحـاجِّ في طاعـةِ الله ﷻ، ومُعاهَـدةٌ مِنه بـالتزامِ أَمْرِه والخُضُوعِ لشَرْعِه، وأنَّه مُمْتثِلٌ لأمرِ سَـيِّدِه وخالقِه ومـولاه ﷻ حين ناداه إلى الحَجِّ.

ومع أنَّ هذا الحَجَّ يكلِّفُه الشَّيءَ الكثيرَ مِـنَ المـالِ والتَّعَـبِ والنَّصَبِ إلَّا أنَّه لبَّى النِّداءَ: «**لبَّيك اللّهمَّ لبَّيك**»، أي: اسـتجابةً مِن وراءِ اسـتجابةٍ، وطاعـةً تتبعُهـا طاعـةٌ، وامتثـالًا يتبعُـه امتثـالٌ، وانقيادًا يعقُبُه انقيادٌ.

وقد وصفَ ابنُ القيِّم رحمه الله هذا المشهدَ العظيمَ فقال:

يُـهلُّـونَ بـالبَيْـداءِ: لَبَّـيـكَ رَبَّـنـا

لك المُلْكُ والحَمْدُ الذِي أَنتَ تَعلَمُ

دَعـاهُـم فَـلَـبَّوهُ رِضًـا وَمَـحبَّـةً

فَـلـمَّـا دَعَـوْهُ كـانَ أَقْـرَبَ مِـنْـهُـمُ

تَراهُم على الأَنْضَاءِ شُعْثًا رُؤوسُهُم

وغُبْـرًا وهـم فـيـها أَسَـرُّ وأَنـعَـمُ

وقَدْ فَارَقُوا الأَوطَانَ والأَهْلَ رَغْبَةً

ولـم يَـثْـنِـهِم لـذَّاتُـهُم والتَّنعُّمُ

يَسِيرُونَ من أَقطارِها وَفِجاجِهَا

رِجـالًا وَرُكبـانًا، ولله أَسْـلَـمُوا[1]

فعلى من أكرمه الله بهذه التَّلبية والاستجابة أن يخرُجَ مِن حَجِّه لبيتِ الله الحرامِ بهذه الفائدةِ العَظيمةِ، والثَّمرةِ الكبيرةِ؛ وهي المداومةُ على الامتثالِ والانقيادِ والاستجابةِ لأمرِ الله ﷻ في عموم الطَّاعات وأنواع العبادات، والبُعْدِ عن المحظورات والمحرَّمات.

(١) انظرها مع شرح لها في «تعليقات على أبيات الحجِّ من ميميَّة ابن القيم».

كلماتُ التَّلبية وما اشتملتْ عليه من القواعدِ والفوائدِ

إنَّ لكلماتِ التَّلبيةِ شأنًا عظيمًا، ودلالاتٍ عميقةً، وهي بلا ريبٍ كلماتٌ عظيمةٌ تشتملُ على معانٍ جليلةٍ، ومقاصدَ نبيلةٍ، وفوائدَ جَمَّةٍ، وقد نبَّه أهل العلم رحمهم الله على عِظَمِ شأن هذه الكلمات، وما اشتملت عليه من منافعَ وفوائد، وكان ممَّن تناولَ هذا الجانِبَ بوَفاءٍ وزيادةٍ في البَسْطِ والبيانِ الإمامُ ابن القيِّم رحمه الله في كتابه «تهذيب السُّنن»، فقال رحمه الله: «**وقد اشتملتْ كلماتُ التَّلبية على قواعدَ عظيمةٍ وفوائدَ جليلةٍ**:

۞ **إحداها**: أنَّ قولَك: «لبَّيك» يتضمَّنُ إجابةَ داعٍ دعاكَ ومُنادٍ ناداك، ولا يَصِحُّ في لغةٍ ولا عَقْلٍ إجابةُ مَن لا يتكلَّم ولا يَدعُو.

۞ **الثَّانية**: أنَّها تتضمَّنُ المحبَّةَ -كما تقدَّم- ولا يُقالُ: «لبَّيك» إلَّا لمَنْ تحبُّه وتعظِّمُه، ولهذا قيل في معناها: «أنا مُواجِهٌ لك بما تُحِبُّ»، وأنَّها مِن قَولهم: «امرأةٌ لَبَّةٌ»؛ أي: مُحِبَّةٌ لولدِها.

۞ **الثَّالثةُ**: أنَّها تتضمَّنُ التزام دَوامِ العُبوديَّةِ، ولهذا قيل: هي مِنَ الإِقامةِ، أي: «أنا مُقيمٌ على طاعتِك».

۞ **الرَّابعةُ**: أنَّها تتضمَّن الخضوعَ والذُّلَّ، أي: خُضُوعًا لك بعدَ خُضُوعٍ؛ مِن قولهم: «أنا مُلِبٌّ بينَ يديك»؛ أي: خاضِعٌ ذَليلٌ.

۞ **الخامسةُ**: أنَّها تتضمَّنُ الإِخلاصَ، ولهذا قيل: «إنَّها مِنَ اللُّبِّ»؛ وهو الخالِصُ.

۞ **السَّادسةُ**: أنَّها تتضمَّنُ الإِقرارَ بسَمْعِ الرَّبِّ ﷻ إذ يستحيلُ أن يقولَ الرَّجُلُ: «لبيك» لِمَن لا يسمَعُ دُعاءَه.

۞ **السَّابعة**: أنَّها تتضمَّنُ التَّقرُّبَ من الله ﷻ، ولهذا قيل: «من الإِلبابِ»؛ وهو: التَّقرُّب.

۞ **الثَّامنة**: أنَّها جُعلَتْ في الإِحرامِ شعارَ الانتقالِ مِن حالٍ إلى حالٍ، ومِن مَنسَكٍ إلى منسَكٍ، كما جُعِلَ التَّكبيرُ في الصَّلاة شعارَ الانتقالِ مِن رُكنٍ إلى رُكنٍ، ولهذا السُّنَّةُ أنْ يُلبِّيَ حتَّى يَشرعَ في الطَّوافِ، فيقطعُ التَّلبيةَ، ثُمَّ إذا سارَ لبَّى حتَّى يقِفَ بعَرَفةَ فيقطعُها، ثُمَّ يلبِّي حتَّى يقفَ بمُزدَلِفَة فيقطعُها، ثُمَّ يلبِّي حتَّى يرميَ جمرةَ العقبةِ فيقطعُها.

فالتَّلبيةُ شعارُ الحَجِّ والتَّنقُّلِ في أعمالِ المناسكِ، فالحاجُّ كُلَّما انتقلَ مِن رُكنٍ إلىٰ رُكنٍ قال: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ»، كما أنَّ المُصلِّي يقولُ في انتقالِه مِن رُكنٍ إلىٰ رُكنٍ: «الله أكبرُ»، فإذا حَلَّ مِن نُسُكِه قطعَها، كما يكونُ سلامُ المُصلِّي قاطِعًا لتكبيرِه.

۞ **التَّاسعةُ**: أنَّها شِعارُ التَّوحيدِ وملَّةِ إبراهيمَ عليه السلام، الَّذي هو رُوحُ الحَجِّ ومقصدُه، بل روحُ العباداتِ كلِّها والمقصودُ منها، ولهذا كانت التَّلبيةُ مِفتاح هذه العبادةِ الَّتي يُدخَلُ فيها بها.

۞ **العاشرةُ**: أنَّها مُتضمِّنةٌ لمفتاحِ الجنَّةِ وبابِ الإسلامِ الَّذي يُدْخَلُ منه إليه؛ وهو: كلمةُ الإخلاصِ والشَّهادةُ لله بأنَّه لا شريكَ له.

۞ **الحادية عشر**: أنَّها مُشتملةٌ علىٰ الحمدِ لله الَّذي هو مِن أَحبِّ ما يَتقرَّبُ به العبدُ إلىٰ الله تعالى، وأوَّلُ مَنْ يُدعَىٰ إلىٰ الجنَّةِ أهلُهُ، وهو فاتِحةُ الصَّلاةِ وخاتمتُها.

۞ **الثَّانية عشر**: أنَّها مُشتملةٌ علىٰ الاعترافِ لله ﷻ بالنِّعمةِ كلِّها، ولهذا عرَّفها باللَّام المفيدةِ للاستغراقِ، أي: النِّعَمُ كلُّها لك ومنك، وأنتَ مُولِيها والمُنْعِمُ بها.

۞ **الثَّالثة عشر**: أنَّها مُشتملةٌ علىٰ الاعترافِ بأنَّ المُلكَ

كلَّه لله وحدَه، فلا مُلكَ على الحقيقةِ لغيرِه.

۞ **الرَّابعة عشر**: أنَّ هذا المعنى مؤكَّدُ الثبوتِ بـ: «إِنَّ» المُقتَضِية تَحقيقَ الخبرِ وتَثبيتَه، وأنَّه ممَّا لا يدخُلُه رَيبٌ ولا شَكٌّ.

۞ **الخامسة عشر**: في «أَنَّ» وجهان؛ فتحُها وكَسْرُها، فمَنْ فتَحَها تضمَّنَتْ معنى التَّعليل؛ أي: لبَّيك لأنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك.

ومَنْ كَسَرها كانت جملةً مُستقلَّةً مُستأنفةً، تتضمَّنُ ابتداءَ الثَّناءِ على الله ﷻ، والثَّناءُ إذا كَثُرتْ جُمَلُه وتعدَّدَتْ كان أَحسنَ مِن قِلَّتها.

وأمَّا إذا فُتِحَتْ فإنَّها تُقدَّر بلام التَّعليل المَحذوفة معها قياسًا، والمعنى: لبيكَ لأنَّ الحمدَ لك، والفَرقُ بَيْنَ [1] أن تكونَ جُمَلُ الثَّناءِ علَّةً لغيرِها، وبَيْنَ أن تكونَ مُستقِلَّةً مُرادةً لنفسِها؛ ولهذا قال ثعلَب: «مَن قال: (إِنَّ) بالكسْرِ فقد عَمَّ، ومَن قال: (أَنَّ) بالفتحِ فقد خَصَّ»[2].

---

(١) كذا في المطبوع، ولعلَّ الصَّواب: «وفرقٌ بَيْنَ».

(٢) انظر: «غريب الحديث» للخطَّابي (٣/ ٢٤٦).

ونظيرُ هذين الوجهَين والتَّعليلَين والتَّرجيح سواء قوله ﷻ حكايةً عن المؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨] بكَسْرِ (إنَّ) وفتحِها؛ فمَنْ فتحَ كان المعنىٰ: «ندعُوه لأنَّه هو البَرُّ الرَّحيم»، ومن كسرَ كان الكلامُ جملتين؛ **إحداهما**: قولهم: ﴿نَدْعُوهُ﴾، ثُمَّ استأنفَ فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾، قال أبو عُبيد: «والكَسْرُ أحسنُ»، ورجَّحه بما ذكرناه.

۞ **السَّادسة عشر**: أنَّها متضمِّنةٌ للإخبارِ عن اجتماعِ المُلْكِ والنِّعمةِ والحَمْدِ لله ﷻ، وهذا نوعٌ آخرُ من الثَّناء عليه، غيرُ الثَّناءِ بمُفرداتِ تلك الأَوصافِ العَلِيَّة؛ فله سبحانه مِن أَوصافه العُلَىٰ نوعَا ثناءٍ:

الأوَّل: نوعٌ متعلِّقٌ بكُلِّ صِفَةٍ علىٰ انفرادِها.

الثَّاني: ونوعٌ متعلِّقٌ باجتماعِها، وهو كمالٌ مع كمالٍ، وهو غايةُ الكمال.

واللهُ سبحانه يَقْرِنُ في صفاتِه بين المُلكِ والحَمْدِ، ويُنَوِّعُ هذا المعنىٰ؛ إذِ اقترانُ أحدِهما بالآخرِ مِنْ أَعظمِ الكمالِ.

فالمُلْكُ وَحْدَه كمالٌ، والحمدُ كَمالٌ، واقترانُ أحدِهما بالآخَرِ كمالٌ، فإذا اجتمع **المُلكُ** المتضمِّنُ للقُدرةِ؛ مَعَ **النِّعمةِ** المُتضمِّنةِ لغايةِ النَّفع والإحسانِ والرَّحمةِ؛ معَ **الحَمْدِ** المُتضمِّنِ

لغايةِ الجَلالِ والإكرامِ الدَّاعي إلىٰ محبَّتِه؛ **كان في ذلك** مِنَ العَظَمةِ والكمالِ والجَلالِ ما هو أولىٰ به وهو أَهْله، **وكان** في ذكرِ الحمدِ له ومعرفتِه به مِن انجذابِ قلبِه إلىٰ الله وإقبالِه عليه والتَّوجُّهِ بدواعي المحبَّة كلِّها إليه **ما هو مقصودُ** العبوديَّة ولبُّها، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاءُ.

ونظير هذا: اقترانُ الغِنىٰ بالكَرَم كقوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]، فله كمالٌ مِنْ غناهُ وكرمِه، ومِن اقترانِ أحدِهما بالآخر، **ونظيرُه:** اقترانُ العِزَّةِ بالرَّحمةِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٩] **ونظيرُه:** اقترانُ العَفْوِ بالقُدرةِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩]، **ونظيرُه:** اقترانُ العلمِ بالحِلْمِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء:١٢]، **ونظيرُه:** اقترانُ الرَّحمةِ بالقُدرةِ ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة:٧].

وهذا يُطلِع ذا اللُّبِّ علىٰ رِياضٍ من العلمِ أَنيقاتٍ، ويفتحُ له بابَ محبَّة اللهِ ومعرفتِه، والله المستعانُ، وعليه التُّكْلان.

۞ **السَّابعة عشر:** أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**خيرُ ما قُلْت أنا والنَّبيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلَه إِلَّا الله وَحْده لا شَريك لَهُ، لَهُ الْمُلْك، ولَهُ الْحَمْد، وهو علىٰ كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٣٥٨٥)، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٠٣).

وقد اشتملتِ التَّلبيةُ على هذه الكلماتِ بعينِها، وتضمَّنتْ معانيها، وقوله: «**وهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» لك أن تُدْخِلَها تحتَ قولِك في التَّلبيةِ: «**لا شريك لك**»، ولك أن تُدخِلَها تحتَ قولِك: «**إن الحمد لك**»، ولك أن تُدْخِلَها تحتَ إثباتِ المُلكِ له تعالى؛ إذ لو كان بعضُ المَوجودات خارجًا عن قُدرتِه ومُلكِه، واقعًا بخَلْقِ غيرِه، لم يَكُنْ نفيُ الشَّريكِ عامًّا، ولم يَكُنْ إثباتُ المُلْكِ والحَمدِ له عامًّا، وهذا مِنْ أعظمِ المُحالِ، فالمُلكُ كلُّه له، والحَمْدُ كُلُّه له، وليسَ له شَريكٌ بوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ .

۞ **الثَّامنة عشر**: أنَّ كلماتِ التَّلبيةِ مُتضَمِّنةٌ للرَّدِّ على كُلِّ مُبْطِلٍ في صفاتِ الله وتوحيدِه؛ فإنَّها مُبْطِلةٌ لقولِ المُشركين على اختلافِ طوائِفِهم ومَقالاتِهم، ولقولِ الفلاسفةِ وإخوانِهم مِنَ الجَهْميَّةِ المُعَطِّلين لصفاتِ الكمال؛ التي هي مُتعَلَّق الحَمْدِ، فهو سبحانه محمودٌ لذاتِه ولصفاتِه ولأفعالِه، فمَن جَحَدَ صفاته وأفعالَه فقد جحدَ حمدَه.

ومُبطِلةٌ لقولِ مَجُوسِ الأُمَّةِ من القَدَريَّةِ الَّذين أَخرجوا عن مُلْكِ الرَّبِّ وقدرتِه أفعالَ عبادِه مِنَ الملائكةِ والجِنِّ والإنس؛ فلم يُثْبِتوا له عليها قدرةً، ولا جعلوهُ خالقًا لها.

فعلىٰ قولهم لا تكون داخلةً تحتَ مُلكِه؛ إذ مَنْ لا قُدرةَ له علىٰ الشَّيءِ كيفَ يكون داخِلًا تحتَ ملكِه؟! فلم يجعلُوا المُلكَ كُلَّه لله، ولم يجعلوه علىٰ كُلِّ شيءٍ قدير.

وأمَّا الفلاسفةُ فعندهم لا قدرةَ له علىٰ شَيءٍ البتَّة.

فمَنْ عَلِمَ معنىٰ هذه الكلمات وشَهِدَها وأَيقنَ بها بايَنَ جميعَ الطَّوائف المُبْطِلة.

۞ **التَّاسعة عشر**: في عطفِ المُلكِ علىٰ الحمدِ والنِّعمةِ بعدَ كمال الخبرِ-وهو قوله: «**إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك والملكَ**»، ولم يقل: «إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ والمُلكَ لك»- **لطيفةٌ بديعةٌ**؛ وهي: أنَّ الكلامَ يصيرُ بذلك جُملتين مُستقلَّتين ، فإنَّه لو قال: «إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ والمُلكَ لك» كان عطفُ المُلكِ علىٰ ما قبلَه عطفَ مُفْردٍ علىٰ مُفْردٍ، فلمَّا تمَّتِ الجُملةُ الأُولىٰ بقوله: «لك» ثمَّ عطفَ «المُلكَ» كان تقديره: «والملكُ لك»، فيكون مساويًا لقوله: «له المُلكُ وله الحَمدُ»، ولم يقل: «له المُلْكُ والحَمدُ»، **وفائدتُه**: تكرارُ الجُمَلِ في الثَّناء.

۞ **العشرون**: لمَّا عطفَ النِّعمةَ علىٰ الحَمْدِ ولم يَفْصِلْ بينهما بالخَبَر، كان فيه إشعارٌ باقترانِهما وتلازُمِهما، وعدمِ مفارقةِ أحدِهما للآخَرِ، فالإنعامُ والحَمْدُ قرينان.

۞ **الحادية والعشرون**: في إعادةِ الشَّهادةِ له بأنَّه لا شريك له لطيفةٌ، وهي: أنَّه أَخبرَ أنَّه لا شَرِيكَ له عَقِبَ إِجابته بقوله: «**لـبَّيك**»، ثُمَّ أعادها عَقِبَ قوله: «إِنَّ الحَمْدَ والنِّعمةَ لك والمُلكَ لا شَرِيكَ لك»، وذلك يتضمَّنُ أنَّه لا شريكَ له في الحمدِ والنِّعمةِ والمُلكِ، والأوَّل يتضمَّنُ أنَّه لا شريكَ له في إجابةِ هذه الدَّعوةِ، وهذا نظيرُ قولِه تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨]، فأخبر بأنَّه «لا إله إلَّا هو» في أوَّلِ الآية، وذلك داخلٌ تحتَ شهادتِه وشهادةِ ملائكتِه وأولي العلمِ، وهذا هو المشهودُ به، ثمَّ أخبرَ عن قيامِه بالقِسْطِ وهو العَدْلُ، فأعادَ الشَّهادةَ بأنَّه لا إله إلَّا هو مع قيامِه بالقِسْطِ»[(١)].

فهذه جملةٌ من الفوائدِ العظيمةِ والقُطُوفِ الكريمةِ مِمَّا تضمَّنتْهُ هذه الكلماتُ الجليلةُ؛ كلماتُ التَّلبيةِ، وهي ولا ريبَ تدلُّ علىٰ أهميَّةِ العناية بفهمِ معاني هذه الكلمات، وأنَّ حُسْنَ الاهتمامِ بذلك يُعينُ العبدَ علىٰ الإتيانِ بهذه العبادةِ علىٰ أكملِ وَجْهٍ وأحسنِ حالٍ.

(١) «تهذيب السنن» لابن القيم (١/ ٣٣٦-٣٤٣).

التَّلْبِيَةُ وَتَجْدِيدُ التَّوْحِيد

كلماتُ التَّلبيةِ كلماتُ توحيدٍ لله ﷻ، كما ورد عن جابرِ ابنِ عبد الله ﷺ في حديثِه الطَّويل الَّذي وصفَ فيه حجَّةَ النَّبيِّ ﷺ، قال فيه: «**فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ؛ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ والمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكَ**»(١).

فوصف كلماتِ التَّلبية بأنَّها التَّوحيدُ، فهي كلماتُ توحيدٍ لله ﷻ وإخلاصٍ، ونبذٍ للشِّركِ وبراءةٍ منه.

وعليه فتَكرارُ الحاجِّ لهذه الكلمات في تنقُّلاته في حجِّه يُعَدُّ تَجديدًا للتَّوحيدِ وتقويةً له في القَلْبِ، وتوسيعًا لمساحَتِه في النَّفس؛ **فإنَّ أوَّلها**: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيك، لَبَّيكَ لا شَريكَ لكَ لَبَّيكَ**»، **وآخِرَها**: «**إنَّ الحَمدَ وَالنِّعْمَةَ لكَ والمُلكَ لا شَرِيكَ لَكَ**»، فجَمَعَتْ في أوَّلها وآخِرِها بينَ التَّوحيدِ بنَوعَيه؛ العَمَليِّ والعِلْمِيِّ؛ لأنَّ التَّوحيدَ الَّذي خَلقَنا الله لأَجْلِه نوعان:

۞ **الأوَّل**: عَمَلِيٌّ؛ وهو إفراد الله بالعبادة وإخلاص الدِّين له؛ قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]،

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

أي: إلَّا ليعبدوا الله ﷻ وَحْدَه مخلصين له الدِّين، وقد انتظمَتْهُ التَّلبيةُ في قولِه: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيكَ، لَبَّيكَ لا شَريكَ لكَ لَبَّيكَ**».

۞ **الثَّاني**: عِلْمِيٌّ؛ وهو العلم بالله وعَظَمتِه وجَلالِه وكمالِه وكِبريائِه ورُبُوبيَّتِه ومُلْكِه وتَدْبيره وتَفَضُّلِه بالنِّعم على العبادِ، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

فبيَّن ﷺ أنَّ المقصودَ من الخَلْقِ العلمُ بالله ﷻ، وعَظَمتِه وكمالِه وجَلالِه وأَسمائِه وصِفاتِه ﷻ، وقد انتظمَتْهُ التَّلبيةُ في قولِه: «**إنَّ الحَمدَ والنِّعمَةَ لك والمُلكَ لا شَريكَ لَكَ**».

فجاءتِ التَّلبيةُ مُنتظِمَة التَّوحيدين؛ **أوَّلها**: توحيدٌ عَمَلِيٌّ، **وآخرها**: تَوحيدٌ عِلْمِيٌّ.

وكذلك تضمَّنت التَّلبيةُ رُكْنَي التَّوحيدِ؛ **النَّفيَ والإثبات**؛ فإنَّ شهادةَ التَّوحيدِ «لا إله إلَّا الله»؛ تتضمَّن أوَّلًا نَفْيَ العبوديَّة عن كُلِّ مَن سِوى الله ﷻ؛ وذلك في قول: «لا إله»، وتتضمَّنُ إثباتَ العبوديَّةِ بكُلِّ معانيها لله ﷻ وَحْدَه، في قول: «إلَّا الله».

وقول الملبِّي: «**لا شريك لك**» متضمِّنٌ لجانبِ النَّفيِ، وقوله: «**لبيك اللّهمَّ لبيْك**» متضمِّنٌ لجانب الإثبات.

فإذا ردَّدَ الحاجُّ كلماتِ التَّلبيةِ مُستشعِرًا معناها ودلالتها؛ عمَّقت في قلبِه التَّوحيدَ، وجدَّدته في نفسِه، ووسَّعتْ مساحتَه في فُؤادِه؛ إخلاصًا لله ﷻ، لكنْ مَن كان يقولُها وهو لا يَعِي مَعناها، ولا يعرفُ ما تَدُلُّ عليه -فَضْلًا عن أن يُحَقِّق مَقصودَها-؛ فربَّما أتىٰ بما يَنقُضُها.

ولهذا قد يُوجَدُ في بعضِ المُلبِّين مَن يقول في دعائِه: «مَدَدْ يا فُلان، أَغِثْني يا فُلان»؛ مُلتَجِئًا ومُستغيثًا بغَيرِ الله ﷻ! فأين «**لبَّيك لا شَريك لك**»؟! وأين «**إنَّ الحَمْدَ والنِّعمةَ لك والمُلكَ**»؟! وأين إيمانُه بتفرُّدِ الله بالمُلكِ والعطاءِ والفَضْلِ والمنِّ، وأَنَّ الأمرَ كُلَّه بيدِ الله ﷻ؟!

فحاصِلُ مدلولِ التَّلبية إخلاصُ العبدِ دينَه لله ﷻ، وإفرادُه بالعبادة؛ ذلًّا وخُضُوعًا، رجاءً وطمعًا، دُعاءً وخَوفًا، سُجُودًا ورُكُوعًا، ذَبْحًا ونَذْرًا، إلىٰ غير ذلك من أنواعِ العبادة.

فالمُلبِّي حقًّا وصِدْقًا لا يدعو ولا يستغيثُ ولا يطلُبُ المَدَدَ والعَوْنَ إلَّا مِنَ الله ﷻ، ولا يتوكَّلُ إلَّا علىٰ الله ﷻ، ولا يَصْرِفُ

شيئًا مِنَ العِبادة إلَّا له ﷻ، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «وأمَّا الحجُّ فشأنٌ آخرُ؛ لا يُدْرِكه إلَّا الحُنفاءُ الذين ضَربوا في المحبَّةِ بسَهْمٍ، وشأنه أجلُّ مِن أَنْ تُحيطَ به العبارةُ، وهو خاصَّةُ هذا الدِّين الحنيفِ، حتَّىٰ قيل في قوله تعالىٰ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [الحج:٣١] أي: حُجَّاجًا.

وجَعَل الله بيتَه الحرام قِيامًا للنَّاس، فهو عمودُ العالَم الذي عليه بناؤه، فلو ترك النَّاسُ كلُّهم الحجَّ سنةً لخرَّت السَّماءُ علىٰ الأرض، هكذا قال ترجمان القُرْآن ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فالبيتُ الحَرامُ قِيامُ العالَم، فَلا يزَالُ قيامًا مَا دام هَذَا البَيْتُ مَحْجُوجًا.

فالحجُّ خَاصَّةُ الحنيفيَّة وتقويتُه، والصَّلاةُ سِرُّ قولِ العبدِ: «**لا إله إلا الله**»؛ فإنَّه مؤسَّسٌ علىٰ التَّوحيد المَحْضِ والمَحَبَّةِ الخالصةِ، وهو استزارةُ المحبوبِ لأحبابِه، ودعوتُهم إلىٰ بيتِه ومحلِّ كرامتِه، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارُهم: «**لبَّيك اللَّهمَّ لبَّيك**»، إجابةَ محبٍّ لدعوةِ حبيبِه، ولهذا كان للتَّلبيةِ موقعٌ عند الله، وكلَّما أكثرَ العبدُ منها كان أحبَّ إلىٰ ربِّه

وأحظى، فهو لا يملكُ نفسَه أن يقول: «**لبَّيك اللّٰهمَّ لبَّيك**»، حتَّى ينقطع نفَسُه.

وأمَّا أسرارُ ما في هذه العبادة؛ مِنَ الإحرام، واجتنابِ العوائدِ، وكَشفِ الرَّأسِ، ونَزعِ الثِّياب المعتادةِ، والطَّوافِ، والوُقوفِ بعرفةَ، ورَمْيِ الجمارِ، وسائر شعائرِ الحجِّ؛ فممَّا شَهِدت بحُسْنه العقولُ السَّليمة والفطرُ المستقيمة، وعَلِمَت بأنَّ الَّذي شرع هذا لا حكمة فوق حكمته»[(١)].

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٢/ ٨٦٨-٨٦٩).

التَّلبيةُ وبَراهِينُ التَّوحيدِ

تَضَمَّنتْ كلماتُ التَّلبيةِ براهينَ عظيمةً على وُجُوبِ توحيدِ الله وإِخْلاصِ الدِّين له، وتتلخَّصُ هذه البراهينُ في أمورٍ خَمْسةٍ:

۞ **الأوَّل**: أنَّ الحمدَ كُلَّه لله ﷻ، فهو الحَمِيدُ ﷻ في ذاتِه وأَسمائِه وصِفاتِه وأَفعالِه، المُستَحِقُّ لكلِّ حَمْدٍ ومَحبَّةٍ وثناءٍ؛ لِمَا اتَّصَفَ به مِن صفاتِ الحَمْدِ والجَمالِ والجَلالِ، ولِمَا أَنعمَ به على خَلْقِه مِنَ النِّعَمِ الجِزَال.

فهو المَحْمُودُ على كُلِّ حالٍ، لأنَّ جميعَ أسمائِه حَمْدٌ، وصفاتِه حَمْدٌ، وأفعالِه حَمْدٌ، وأَحكامِه حَمْدٌ، وجميعَ فَضْلِه وإِحسانِه إلى عِبادِه حَمْدٌ، والخَلْقُ والأَمرُ إنَّما قاما بحَمْدٍ، وظهرا بحَمْدِه، وكانت الغايةُ منهما هي حَمْدُه.

وقد نبَّه اللهُ ﷻ على شُمُولِ حَمْدِه لخَلْقِه وأَمْرِه؛ بأن حَمِدَ نفسَهُ في أَوَّلِ الخلق وآخره، وحَمِدَ نفسَهُ على رُبُوبيَّتِه للعالمين، وحَمِدَ نفسَهُ على تفرُّدِه بالإِلهيَّة، وحَمِدَ نفسَهُ على حياته، وحَمِدَ نفسَهُ على امتناعِ اتِّصافِه بما لا يَلِيقُ به مِن اتِّخاذِ الوَلَدِ

والشَّريكِ، إلىٰ غير ذلك من أنواع الحمدِ الَّتي حَمِدَ الله بها نفسه في كتابه، وكلُّ ذلك برهانٌ جليٌّ علىٰ أنَّه وَحْدَه المَعْبودُ بحَقٍّ، ولا معبودَ بحقٍّ سِواهُ، ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٥].

۞ **الثَّاني**: أنَّ النِّعمةَ كلَّها لله ﷻ؛ لهذا عرَّفها باللَّام المفيدةِ للاستغراقِ؛ أي: كُلُّ النِّعَمِ أنتَ موليها ومُسْدِيها والمُنعِم بها؛ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

ونِعمُ الله ﷻ علىٰ عبادِه لا حَصْرَ لها ولا عَدّ؛ مِنْ جَزِيل المَواهِبِ، وسَعَةِ العطايا، وكَريمِ الأَيادي، وسَعَةِ رحمَتِه لهم، وبرِّهِ ولُطْفِه بهم، وإجابتِه لدعواتِ المُضْطَرِّين، وكَشْفِ كُرُباتِ المَكْرُوبين، وإغاثة دعوات المَلْهُوفين، **وأَعْظَمُ ذلك**: هِدايتُه للخاصَّةِ من عبادِهِ إلىٰ سَبيلِ دَارِ السَّلام، ومُدافَعَتُه عن أوليائه أَحْسَنَ الدِّفاعِ، إلىٰ غير ذلك من النِّعم والعطايا.

أَفَيَلِيقُ بأَنْ يُجعل مَعَ مَنْ هذا فضلُهُ ومَنُّه شَرِيكٌ؟!

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل: ٥١- ٥٦].

۞ **الثَّالث**: أنَّ المُلْكَ كُلَّه لله ﷻ، لا مالِكَ إلَّا هو، وجميعُ الأشياء هو مالِكها والمتصرِّفُ فيها بلا مُمانَعَةٍ ولا مُدافَعَةٍ، وهذا من دلائلِ إثباتِ كمال قُوَّته وعِزَّته وقُدرَته، وأنَّ عِلْمَه مُحيطٌ بكلِّ شَيءٍ، ومشيئَتَهُ نافذةٌ، وقُدرتَهُ شامِلةٌ، وحِكمتَه واسِعةٌ، وأنَّ حُكْمَه عامٌّ للعالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ، والدُّنيا والآخرة.

وأنَّه المُتَصَرِّفُ في مُلْكِه بما يشاءُ؛ تَصَرُّفَ مَلِكٍ قادِرٍ قاهِرٍ عادِلٍ رَحيمٍ حَكِيمٍ خَبيرٍ تامِّ المُلكِ، لا يُنازِعُه في مُلكِه مُنازِعٌ، ولا يُعارِضُه فيه مُعارِضٌ، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦]، وقال ﷻ: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وهذا كُلُّه مِن براهين وُجُوبِ توحِيدِه.

أمَّا مَن سِوىٰ الله ﷻ فلا يَمْلِكُ لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا ولا حياةً ولا مَوْتًا ولا نُشُورًا، فَضْلًا عن أن يَمْلِكَ شيئًا مِن ذلك لغَيره، ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦].

وقال ﷻ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

۞ **الرَّابعُ**: أنَّ هذه التَّلبيةَ ـ كما تقدَّم ـ مُتضَمِّنَةٌ الإخبارَ عنِ اجتماع المُلكِ والنِّعمةِ والحَمْدِ لله ﷻ، وهذا نوعٌ آخَرُ مِنَ الثَّناءِ عليهِ غيرُ الثَّناءِ بمُفْرَداتِ تِلكَ الأَوصافِ العَلِيَّةِ، فالمُلْكُ وَحْدَه كمالٌ، والحمدُ كَمالٌ، واقترانُ أحدِهما بالآخَرِ كمالٌ، فإذا اجتمع المُلكُ المتضمِّنُ للقُدرةِ؛ مَعَ النِّعمةِ المُتضمِّنةِ لغايةِ النَّفع والإحسانِ والرَّحمةِ؛ معَ الحَمْدِ المُتضمِّنِ لغايةِ الجَلالِ والإكرامِ الدَّاعي إلىٰ محبَّتِه كان في ذلك مِنَ العَظَمةِ والكمالِ والجَلالِ ما هو أولىٰ به وهو أَهْله، وكان في ذكرِ الحمدِ له ومعرفتِه به مِنِ انجذابِ قلبِه إلىٰ الله وإقبالِه عليه والتوجُّهِ بدواعي المحبَّة كلِّها إليه ما هو مقصودُ العبوديَّة ولبُّها.

۞ **الخامس**: في قولِه: «**لا شَرِيكَ لَكَ**»، وقد تكرَّرتْ هذه الجملةُ في التَّلبيةِ مرَّتين؛ مرَّةً عَقِبَ إجابتِه بقولِه: «**لَبَّيكَ**»، ومرَّةً عَقِبَ قوله: «**إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ**».

فالأوَّلُ: يتضمَّنُ أنَّه لا شَريك له في إجابةِ هذه الدَّعوةِ.

والثَّاني: يتضمَّنُ أنَّه لا شريك له في الحَمْدِ والنِّعمةِ والمُلْكِ.

وإذا تقرَّرَ أنَّ الحَمْدَ كُلَّه لله، والنِّعمةَ كُلَّها من الله، والمُلكَ كُلَّه له، ليس له شَرِيكٌ في ذلك بوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ؛ فليُفْرَدْ وَحْدَه بالتَّلبيةِ والخُضُوعِ والمَحَبَّةِ والانقيادِ والطَّاعةِ.

وكيف يُشْرَكُ مع الله في العبادة مَن لا يَمْلِكُ في هذا الكَوْنِ نفعًا ولا دَفعًا، وليسَ بيدِه عطاءٌ ولا مَنْعٌ؟! **تعالى الله عمَّا يُشْرِكون .**

فهذه خمسةُ دلائلَ عظيمةٍ وبراهينَ جليلةٍ على وُجُوبِ التَّوحيدِ والإخلاصِ، اشتملتْ عليها كلماتُ التَّلبيةِ، وأَرشدتْ إليها بوُضُوحٍ، ودَلَّتْ بجلاءٍ على فسادِ الشِّرك وشِدَّةِ قُبحِهِ، وأنَّ أهلَهُ مِن أَسفَهِ النَّاسِ وأَضَلِّهم عن سَواءِ السَّبيل.

التَّلبيةُ والبَراءةُ منَ الشِّرك

تقدَّم بيانُ فضلِ التَّلبية وأنَّها مشتملةٌ على الإهلالِ بتَوحيدِ الله ﷻ، ونبذِ الشِّركِ؛ ولذا فقائلُ هذه الكلمةِ بحَقٍّ لا يَصْرِفُ أيَّ نوعٍ مِن أنواعِ العبادةِ إلَّا لله وَحْدَه ﷻ، فلا يَسألُ إلَّا الله، ولا يستغيثُ إلَّا به، ولا يتوكَّلُ إلَّا عليه، ولا يَطْلُبُ المَدَدَ والعونَ والنَّصرَ إلَّا من الله؛ الَّذي بيدِه العطاءُ والمنعُ، والقَبضُ والبَسْطُ، والنَّفع والضُّرُّ، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

فالمسلمُ عندما يقول في تلبيتِه: «**لا شريك لك**» يجبُ أن يكونَ عالِمًا بحقيقةِ الشِّركِ، مُدرِكًا خطرَه، حَذِرًا تمامَ الحَذَرِ من الوقوعِ فيه، أو في شيءٍ من أسبابه ووسائله وطرقه؛ إذ هو أعظم ذنبٍ عُصِيَ اللهُ به، ولهذا رُتِّبَ عليه من العقوبة في الدُّنيا والآخرة ما لم يُرتَّب على غيره من الذُّنوب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

والآيات في هذا المعنىٰ في القرآن الكريم كثيرة، يُحذِّر فيها الرَّبُّ ﷻ عبادَه من الشِّرك به، ويُبيِّنُ لهم شِدَّةَ خَطَرِه، وعِظمَ مغبَّته، وسُوءَ عاقبته، وأليمَ مآله علىٰ فاعله في الدُّنيا والآخرة.

فالشِّركُ أخطارُهُ جَسِيمةٌ، وفاعلُه لا يجني مِنْ ورائِه إلَّا الخَيبةَ والحِرمان والمَذَلَّة والخُسران، وهو أعظمُ ذَنبٍ عُصِيَ الله به علىٰ الإطلاق؛ وهو أظلمُ الظُّلمِ لأمورٍ عديدةٍ:

۞ منها: كونُهُ يتضمَّنُ التَّنقُّصَ لمقامِ رَبِّ العالمين؛ بصَرْفِ خالِصِ حَقِّه لغيرِه من مخلوقاتِه، وعَدْلِ غيرِه به.

۞ وأنَّه مناقضٌ ومنافٍ لمقصودِ الخَلقِ والأَمرِ.

۞ وفيه غايةُ المُعاندةِ لربِّ العالمين، والاستكبارِ عن طاعتِه، والذُّلِّ له.

۞ وفيه تشبيهُ المخلوق بالخالقِ تعالىٰ وتقدَّس، فكيفَ يُجعَلُ مَن لا يَمْلِكُ لنفسِهِ ولا لغيرِه ضَرًّا ولا نفعًا ولا مَوتًا ولا حياةً ولا نشورًا؛ شبيهًا بمَن له الخلقُ كلُّه؟! وله المُلكُ كُلُّه؟! وبيدِه الخَيرُ كُلُّه؟! وإليه يُرجَعُ الأَمرُ كُلُّه؟! وأزِمَّةُ الأُمورِ بيدِه، ومَرجِعُها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكن، لا مانعَ لما أعطىٰ، ولا مُعْطِيَ لما منعَ، إذا فتحَ للنَّاس رحمةً فلا مُمْسِك لها، وما يُمْسِك فلا مُرْسِلَ له من بعدِه.

والواجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يَحْذَرَ مِنَ الشِّركِ أَشَدَّ الحَذَرِ، وأَن يخافَ علىٰ نفسه مِنَ الوُقُوعِ فيه أشدَّ الخوفِ، فهذا نبيُّ الله وخليله إبراهيمُ عليه السلام يقولُ في دعائِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم ٣٥-٣٦]، فإذا كان إبراهيم الخليلُ عليه السلام يدعو ربَّه أن يعيذه وبنيه من الشِّرك وأن يُجنِّبهم عبادةَ الأصنام، لعلمه أنَّه لا يصرفُه عنها إلَّا اللهُ بهدايته وتوفيقه، لا بحوله هو وقوَّته، فما ظنُّك بغيره؟!

كما قال إبراهيمُ التَّيميُّ رحمه الله: «من يأمنُ البلاءَ بعد خليل الله إبراهيمَ ؟!»[1].

فهذا كُلُّه يوجِبُ الخَوفَ الشَّديدَ مِنَ الشِّرك، وشِدَّةَ الاحْترازِ منه، وسؤالَ الله دومًا العافيةَ مِنَ الوُقُوعِ فيه.

ويتطلَّبُ مِنَ العبدِ المُؤمنِ أيضًا أن يكونَ عالِمًا بحقيقةِ الشِّركِ وأَسبابِه، ومَبادئِه وأَنواعِه؛ لئلَّا يقعَ فيه؛ فيخسَر دُنياه وأُخراه.

ولهذا يقول الصحابيُّ الجليلُ حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه: «كان الناسُ يسألون رسولَ الله ﷺ عن الخَيرِ، وكنت أسأله عن الشَّرِّ مخافةَ أَن يُدرِكَني»[2].

وذلك أنَّ مَن لم يَعْرِف إلَّا الخير قد يقعُ في الشَّرِّ إذا جاءه وهو لا يدري، أو لا ينكِرُه كما يُنكِرُه مَن عرَفَه وعرفَ خطرَهُ؛ ولهذا قال عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّما تُنقَضُ عُرَى الإسلامِ عُروةً عُروةً إذا نشأَ في الإسلامِ مَنْ لم يَعْرِفِ الجاهليَّة»[3].

فالبعدُ عن الشِّركِ كلِّه، وإخلاصُ التَّوحيدِ لله، أصلٌ يَجِبُ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ٦٨٧-٦٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٦٠٦)، ومسلم في «صحيحه» (١٨٤٧).

(٣) انظره مع تعليق مفيد عليه في الفوائد لابن القيم (ص١٥٩).

أن تُبنى عليه كلُّ طاعةٍ يتقرَّبُ العبدُ بها إلى الله ﷻ، ولهذا قال الله ﷻ في سورة الحجِّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج ٢٧-٣١].

فحذَّر ﷻ في سياق الآيات الكريمات المتعلِّقة بالحَجِّ مِنَ الشِّرك، وأمرَ باجتنابِه، وبيَّنَ قُبحَه وسُوءَ عاقبتِه، وأنَّ فاعلَه بفعلِه له كأنَّما خرَّ مِنَ السَّماء فتخطفُه الطَّيرُ أو تهوي به الرِّيحُ في مكان سحيق.

وقبل هذه الآيات أَمَرَ اللهُ ﷻ نبيَّه إبراهيمَ عليه السلام بتطهيرِ البيتِ بعد أن بوَّأه مكانَه، وَنَهَاهُ عن الإشراك به ﷻ، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[الحج: ٢٦].

وقد كان المشركون في الجاهليَّةِ يطوفونَ بالبيت ويحجُّون ويقولون في تلبيتهم: «لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ»، **فيزيدون فيها**: «إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ»، فيبدؤون التَّلبيةَ بالإخلاصِ لله ﷻ، ثُمَّ يستثنون شريكًا هو مملوكٌ لله ﷻ، ويُريدون به الأصنامَ الَّتي يعبدونها مع الله، ويدَّعونَ أنَّها أولياؤهم وتقرِّبهم إلى الله، ولذلك كان رسول الله ﷺ يُنكِرُ عليهم هذه التَّلبيةَ.

فعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «كانَ المُشْرِكُونَ يقُولُونَ: لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لكَ، قالَ: فيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيلَكُمْ، قَدْ قَدْ**» فيقُولُونَ: «إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ»، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ» (١).

فقوله ﷺ: «**قَدْ قَدْ**»، أي: اكتفوا بـ«لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ»؛ لأنَّه توحيدٌ، ولا تزيدوا عليه ما بعدَه؛ لأنَّه شِركٌ.

فعلى الحاجِّ أن يُقارِنَ بين ما كان عليه أولئك في تلبيتهم وبين تلبيتِه بالتَّوحيدِ الَّتي يُردِّدها في نُسُكِه، ويحمد اللهَ ﷻ على هذه النِّعمةِ العظيمةِ الَّتي يعيشها؛ أن هداه الله لتوحيده، ووفَّقه لهذا الإهلال العظيم بالإخلاص والبراءة من الشِّرك،

---

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (١١٨٥).

ولم يجعلْهُ كحال المشركين الَّذين جعلوا مع الله أندادًا وشركاء مع إقرارهم بأنَّه لا خالق لهم ولا رازق إلَّا الله.

قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رحمه الله: «ليس أحدٌ يَعبُدُ مع الله غيرَه إلَّا وهو مؤمنٌ بالله ﷻ، ويعرف أنَّ الله ربُّه، وأنَّ الله خالقُهُ ورازقُه، وهو يشركُ به!! أَلا تَرىٰ كيفَ قال إبراهيمُ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥- ٧٧]، قد عرفَ أنَّهم يعبدون رَبَّ العالمين مع ما يَعبُدُون.

قال: فليس أحدٌ يُشرِكُ به إلَّا وهو يُؤمِنُ به، أَلا ترىٰ كيفَ كانتِ العَرَبُ تُلَبِّي، تقول: «لبَّيك اللَّهم لبَّيك، لبَّيك لا شريكَ لك، إلَّا شريكًا هو لك، تملِكُه وما ملك»؟! المشركون كانوا يقولون هذا!» [1].

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره»، واللفظ له (١٣/ ٣٧٦) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٨).

التَّلبيةُ والاستجابة لله ﷻ ولِرَسولِه ﷺ

كلماتُ التَّلبيةِ فيها تحقيق الاستجابة لله ﷻ وللرَّسول ﷺ، ولها أثرٌ عميقٌ على الحاجِّ المُوفَّقِ إذا حقَّقَ التَّلبيةَ وأَحسنَ فيها، فهي تُربِّيه على طاعة الله ﷻ والاستجابة لأمره، الَّتي ينال بها المسلمُ الحياة الحقيقيَّة؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال:٢٤]؛ فمِن بركات هذه التَّلبيةِ أنَّها تربِّي على هذه الحياة.

ولذلك ارتَبطَتِ التَّلبيةُ بكلِّ أَعمالِ الحَجِّ، بدءًا من انطلاق الحاجِّ مِنَ المِيقات وُصُولًا إلى البيتِ، ثُمَّ في التَّنقُّلات بينَ المشاعر؛ مِنْ مِنًى إلى عرفاتٍ، ومِنْ عرفات إلى المزدلفةِ، ومِنَ المزدلفة إلى مِنًى، يصدع الحاجُّ بهذه الكلمات ويُكَرِّرها في تلك الأراضي الشَّريفة والبقاع الفاضلة مرَّاتٍ كثيرة.

فهذا التَّكرارُ للتَّلبيةِ باستحضار معناها مؤثِّرٌ ولابدَّ في نفسِ الحاجِّ بضَرورة الاستجابةِ لنداء ربِّ العالمين له؛ ومن ذلك استجابتُهُ له حينما ناداهُ إلى أداءِ هذا النُّسك العظيم في قوله ﷻ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج:٢٧].

أَفيليقُ بمؤمنٍ كان مِن أَهلِ: «**لَبَّيْكَ اللّٰهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ**» أن يسمعَ «**حَيَّ على الصَّلاةِ حَيَّ على الفَلاحِ**» ثُمَّ لا يستجيب؟! يسمَعُ النِّداءَ لشَيءٍ أعظمَ مِنَ الحَجِّ -وهو الصَّلاة- ثُمَّ لا يستجيب؟!

فالصَّلاةُ عِمادُ الدِّينِ وأعظمُ فرائِضِه وأَكبرُها وأَجلُّها بعدَ الشَّهادتين.

فيا مَن دعاكَ اللهُ ﷻ للحَجِّ فلبَّيتَ النِّداءَ وجئتَ قاصِدًا بيتَه العتيقَ؛ ترجُو رحمتَه وتَخافُ عِقابَهُ؛ كيف حالُكَ مع الصَّلاة الَّتي هي عماد الدِّين وأعظمُ أركانِه بعد الشَّهادَتَين؟! وكيف شأنُكَ مع الصِّيام والزَّكاة وبقيَّةِ الأَوامر؟!

كيفَ شأنُك في البُعد عن النَّواهي وترك المحرَّمات؟

فإن كنتَ مُمْتَثِلًا فاحمدِ اللهَ، واسألهُ المزيدَ، وإنْ كُنتَ مُفرِّطًا مُضيِّعًا فحاسِب نفسَك قبلَ أن تُحاسَب في يوم الوعيد.

تَـذكَّـر يـوم تـأتـي الله فـردًا

وقـد نُـصِبَت موازينُ القضاء

وهُتِّكت السُّتور عن المعاصي

وجاء الذنبُ منكشف الغطاء[1]

---

(١) البيتين في التذكرة للقرطبي (٢/ ٧٢٥).

فتفكَّر في ذلك اليوم، وأعِدَّ له عدَّته، وقد قال الله تعالى في ختم آيات الحَجِّ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البقرة:٢٠٣].

جعلنا الله من عباده المتَّقين، وأعاذنا من خِزيِ يومِ الدِّين.

التَّلبية وصَلاحُ النُّفُوس والبعدُ بها عن الحرام

مِن منافعِ التَّلبيةِ أنَّها تُهذِّبُ نَفْسَ قائلِها وتُصْلِحُ قلبَهُ، وتُعِينُهُ على البُعْدِ عن الحرام، فالحاجُّ من بدايةِ النُّطْقِ بالتَّلبيةِ يلتَزِمُ البُعدَ عن جَميعِ مَحظُورات الإحرامِ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة:١٩٧].

ويقولُ النبيُّ ﷺ: «**مَن حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمَ ولَدَتهُ أُمُّهُ**»(١).

وتراه يَنْضَبِطُ في مناسِكه تمامَ الانضباطِ، ويسأَلُ دائمًا أهلَ العلمِ أَسئلةً دقيقةً فيما يُنهىٰ عنه؛ ليسْلَمَ له حجُّه من الإثم والمحظورات، فيبتعِدُ عن مَسِّ الطِّيبِ، ويحذَرُ مِن أَن يأخُذَ مِن شَعرِه، وكذا يجتَنِبُ تغطيةَ رأسِه، وكذا شأنه في باقي محظورات الإحرام.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٥٢١)، واللفظ له، ومسلم في «صحيحه» (١٣٥٠).

فإذا كانت هذه حاله تركًا وبعْدًا عن مناهي الحجِّ ومحظوراته؛ فما عساهُ أن يكونَ حالُهُ مع عظائم الآثام وكبائرِ الذُّنوبِ؟! هل هو مستجيبٌ لربِّه في البعدِ عنها، والحذرِ منها؟! أم أنَّ نفسَهُ مُنفلتَةٌ في المُوبقات والآثام والمعاصي؟

ولهذا لمَّا خَطَبَ النَّبيُّ ﷺ في الحجِّ قال للنَّاس: «**أَلا إِنَّما هُنَّ أَربَعٌ: أَن لا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيئًا، ولا تَقتُلُوا النَّفسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إِلا بالحَقِّ، ولا تَزنُوا، ولا تَسرِقُوا**» (١).

وقال في الحَجِّ أيضًا: «**فإِنَّ دِماءَكُم وأَموالَكُمْ وأَعْراضَكُمْ عَلَيكُمْ حَرامٌ، كحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا**» (٢).

وقال ﷺ في الحجِّ أيضًا: «**المُجاهِدُ مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ في طاعَةِ اللهِ، والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطايا والذُّنُوبَ**» (٣).

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٩٩٠) وصحح إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٧٣٩) من حديث ابن عباس ﷺ، ومسلم في «صحيحه» (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٥٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٤٩).

فتحدَّث رسول الله ﷺ في حَجَّتِه حديثًا مُستفيضًا عن اجتنابِ المُحَرَّمات والمَنهيَّات؛ لأنَّ الحَجَّ فُرصةٌ عظيمةٌ للانتقالِ مِنْ سَيِّئ الحالِ إلىٰ حَسَنِهِ وكمالِه، ومِنَ المعاصي والذُّنوب إلىٰ الطَّاعات والقُرُبات، فيَرجِعُ مِن حَجِّه بصَفْحَةٍ جديدةٍ وحالٍ أُخرىٰ غير الَّتي كان عليها.

ولهذا يذكُرُ العلماءُ أَنَّ مِن علامات قَبولِ الحَجِّ أن تكونَ حالُ العَبدِ بعدَ الحَجِّ خيرًا ممَّا كانت عليه قبله؛ ومن شواهِدِ ذلك قولُ ربِّنا ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ [الشورىٰ:٢٣] أي: طاعةً وعبادةً لله؛ ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورىٰ:٢٣] بأن يَشْرَحَ الله صَدْرَه، ويُيَسِّرَ أمرَه، ويُوفِّقَهُ لأعمالٍ وطاعاتٍ أُخرىٰ، فإذا خَرَجَ مِن طاعةِ الحَجِّ وأَحْسَنَ فيها زادَ الخَيرُ عِندَه بعد الحجِّ، وفُتِحَتْ له أبوابُ الخَيرِ بفَضْل الله ﷻ ومَنِّه، وكان ذلك سببًا لرضوانِه عنه، وإكرامِهِ بالفوز بجنَّات النَّعيم، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**والحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّة**»(١).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٧٧٣)، ومسلم في «صحيحه» (١٣٤٩).

تلبيةُ الصَّحابةِ رضوان الله عليهم

كان الصَّحابةُ رضي الله عنهم يُلَبُّون بتلبيةِ النَّبيِّ ﷺ ويَحْرِصُون على ذلك، وكانوا رضي الله عنهم يرفعون أَصْواتَهم بها، فلا يَبْلغون الرَّوحاء حتى تُبَحَّ أصواتُهم مِن شِدَّةِ تلبيتهم (١).

وقد ثبتَ عنهم رضي الله عنهم أَنَّهم مع تلبيتِهم بتلبيةِ النَّبيِّ ﷺ، كانوا يَزِيدُون في التَّلبية ألفاظًا فيها الثَّناءُ على الله تعالى وتعظيمه، فكان ﷺ يَسْمَعُ ذلك ويقرُّهم عليه.

فجاء في بعض ألفاظ حديث جابرٍ رضي الله عنه في وَصفِ حَجَّةِ النَّبيِّ ﷺ: «**فَأَهَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالتَّوحِيدِ «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيكَ، إِنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لكَ والمُلْكَ لا شَرِيكَ لكَ»، وأَهَلَّ النَّاسُ بِهذا الَّذي يُهِلُّونَ بِهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيئًا مِنْهُ، ولَزِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَلْبِيَتَهُ**» (٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥٠٥١)، وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٤٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (١٩٠٥)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٠١٧).

وفي بعضها: «ولَبَّى النَّاسُ: لَبَّيكَ ذا المَعارِجِ ولَبَّيْكَ ذا الفَواضِلِ، فَلَمْ يَعِبْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ شَيْئًا» (١).

وفي لفظٍ: «والنَّاسُ يَزِيدُونَ: ذَا الْمَعَارِجِ، وَنَحْوَهُ مِنَ الْكَلَامِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَسْمَعُ، فلا يقولُ لَهُمْ شَيْئًا» (٢).

و«ذو المعارج» أي: ذو العُلُوِّ والجَلالِ والعَظَمَةِ، والتَّدبيرِ لسائرِ الخَلقِ، الَّذي تعرُجُ إليه الملائكةُ بما دَبَّرها وأَمَرها، وتعرُجُ إليه الرُّوحُ.

۞ ومن هذه التَّلبيات الَّتي رُوِيَتْ عنهم:

ما جاء عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه قال: «كانَتْ تَلْبِيةُ عُمَرَ رضي الله عنه: «لَبَّيكَ اللَّهُمَّ لَبَّيكَ، لَبَّيكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيكَ، إِنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لكَ والمُلْكَ، لا شَرِيكَ لكَ لَبَّيكَ مَرغُوبًا أَو مَرْهُوبًا، لَبَّيكَ ذا النَّعْمَاءِ والفَضْلِ الحَسَنِ» (٣).

ومعنى «مَرْغُوبًا أَوْ مَرْهُوبًا»؛ أي: نُلَبِّي جامعين في تلبيتِنا بينَ الرَّغبةِ والرَّهبةِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩٠٣٢).

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (١٨١٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود-الأم» (١٥٩١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣٤٧٢).

وعن نافعٍ، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ، أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**لَبَّيكَ اللهُمَّ لَبَّيكَ، لَبَّيكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيكَ، إِنَّ الحَمدَ وَالنِّعمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكَ**».

قال: «**وكانَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ ﷺ يَزِيدُ فيهَا: «لَبَّيْكَ لَبَّيكَ وسَعْدَيكَ، والخَيْرُ بِيَدَيكَ لَبَّيكَ والرَّغْباءُ إِلَيكَ والعَمَلُ**»[(١)].

والمعنى: الطَّلبُ والمسألة إلى من بيده الخير، وهو المقصود بالعمل المستحقُّ للعبادة.

وجاء عَن ابنِ سِيرين، عن أَخيه يَحْيى بن سِيرِينَ قال: «كانَتْ تَلْبِيَةُ أَنسٍ ﷺ: لَبَّيكَ حَجًّا حَقًّا تَعَبُّدًا وَرِقًّا»[(٢)].

۞ وقد اختلفَ أهلُ العلمِ في هذه الزِّيادات؛ هل هي جائزةٌ أَمْ أنَّ الواجِبَ ألَّا يُزادَ على المَرْوِيِّ عن رسول الله ﷺ؟

فقال بعض أهل العلمِ: «لا بأس أن يزيدَ فيها مِنَ الذِّكرِ لله ما أحبَّ».

وخالفَهم آخرون فقالوا: «لا ينبغي أن يُزادَ على ما علَّمَه رسول الله ﷺ النَّاس»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١١٨٤).

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (٦٨٠٤).

(٣) انظر تفصيل المسألة في «فتح الباري» لابن حجر (٣-٤١٠-٤١١).

ولا شكَّ أنَّ الاقتصارَ على ما جاء عن النَّبيِّ ﷺ هو الأولى والأفضل، فإنَّه وإنْ كان قد أقرَّ الصَّحابة على تلك التَّلبيات فإنَّه لم يأتِ بها، وليس للإنسان بعدهم أنْ يزيدَ في التَّلبية ما شاء، فإنَّ من النَّاس مَن قد يزيدُ شيئًا لا يسوغُ.

وأمَّا الصَّحابة رضي الله عنهم فما كانوا يأتونَ إلَّا بشيءٍ سائغٍ، وقد أقرَّهم النَّبيُّ ﷺ على تلك الزِّيادات، ولهذا لا يصحُّ أنْ يزيدَ الإنسانُ مِن عنده ما شاء، لكنْ إنْ أتى بشَيءٍ ممَّا جاء عن الصَّحابة رضي الله عنهم فلا بأسَ بذلك، والاقتصارُ على ما جاء عن النَّبيِّ ﷺ هو الأولى.

قال ابنُ تيميةَ رحمه الله: «وإنْ زادَ على ذلك لبَّيك ذا المعارجِ، أو لبَّيك وسعديك ونحو ذلك جاز، كما كان الصَّحابة يزيدونَ ورسولُ اللهِ ﷺ يسمعُهُم فلم ينهَهُم، وكان هو يداوِمُ على تلبيته»[1].

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ١١٥).

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدِّمة	٥
معنى التَّلبية	٩
كلمات التَّلبية وما اشتملت عليه من القواعد والفوائد	١٣
التَّلْبِيَةُ وَتَجْدِيدُ التَّوْحِيد	٢٢
التَّلبيةُ وبَراهِين التَّوحيدِ	٢٧
التَّلبيةُ والبَراءةُ منَ الشِّرك	٣٢
التَّلبِيةُ والاستجابة لله ولِرَسولِه ﷺ	٣٩
التَّلبية وصَلاحُ النُّفُوس والبعدُ بها عن الحرام	٤٢
تلبية الصحابة رضوان الله عليهم	٤٥

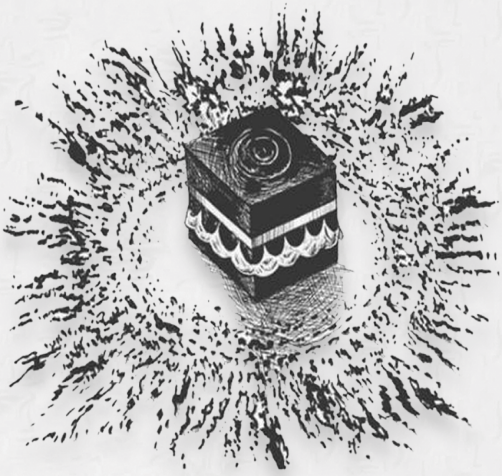

مكتب إتقان
للتحقيق والدراسات العلمية